المحاضرة الخامسة

إبستيمولوجيا علم الاجتماع

1–طبيعة وأصول علم الاجتماع

2–تعريف علم الاجتماع

3–أصول علم الاجتماع

4–أصول علم الاجتماع

5–التفسير والفهم في علم الاجتماع

6–علم اجتماع ما قبل الأمس

7–علم اجتماع الأمس

8–علم اجتماع اليوم

1–طبيعة وأصول علم الاجتماع:

التاريخ وعلم الاجتماع :

أ– **كيف يتمايزان:**

من وجهة نظر واقعية علم الاجتماع موضوعه هو نفسه موضوع التاريخ: المجتمعات البشرية. ولكن لا شيء يوضح بشكل أمين خطأ الإبستيمولوجيا الواقعية أكثر من هذا الخلط الخادع. موضوع التاريخ ينتظم داخل المدة حيث الأجزاء تلغى بالتبادل، وكذلك الأحداث التي هي في نهاية التحليل محتوى هذه المعرفة تكون دائما فردية وغير قابلة للاستعادة. على العكس موضوع علم الاجتماع ينتظم خارج الزمن، في أطر لا يمكن القول أنها مكانية إلا بفضل اختزالبرغسوني صريح، ولكن في كل الأحوال نفترض وجود وتقريب الأجزاء وتكرار التجارب. بينما مثلا، مؤرخ الأديان يضع كل اهتماماته من أجل إعادة إخراج الأصالة غير القابلة للاختزال لدين بدائي مثل الطوطمية بالنسبة لديانة عالمية حديثة مثل المسيحية، دوركايم في كتابه الصور الأولية للحياة الدينية جهد في

استخلاص السمات المشتركة من أجل تكوين المفهوم السوسيولوجي للدين، من أجل اكتشاف القوانين التي تحكم الدين بشكل عام، معلم وقوانين صالحة بالنسبة للطوطمية كما المسيحية والإسلام والكنيسة الكاثوليكية. نظرية مثل الماركسية، حساسة جدا أكثر من الدوركايمية للصيرورة الزمنية، يجب مع ذلك أن تعتبر، باعتبارأنها تخضع لشروط ثابتة، بدلا من اعتبارها نظرية في التاريخ، كنسق تأويلي سوسيولوجي. المقصد من العلمين مختلف. التاريخ هو علم المجتمعات البشرية ضمن منظور الماضي. الأمر يتعلق بإعادة تطور معيش، ووصفه بخطاب معقول. علم الاجتماع هو علم المجتمعات البشرية في منظور شرعي. التاريخ يعيد صيرورة ما، علم الاجتماع يؤسس تفسيرا عالميا. التاريخ يتكون من أحداث تضيء علاقات علم الاجتماع ويتكون من علاقات تقدم الأحداث لها حاملا تجريبيا.

ب- **كيف يتعاونان:** انفصال صارم بين التاريخ وعلم الاجتماع المبرر على مستوى المفهوم، لا يمكن أن يتم الاحتفاظ به في ممارسة البحث. هناك بين العلمين نقاط إتصال وتبادلات ضرورية وحتى تناقضهما يؤدي إلى استمرارية تبدو غالبا متكاملة.

1- **التاريخ يستدعي علم الاجتماع:** إذا كان التاريخ يستدعي علم الاجتماع، فليس فقط لأن التفسير السببي يحيل إلى علاقات عالمية.

2-تعريف علم الاجتماع: من السهل إذن تعريف علم الاجتماع بأنه علم القوانين التي تحدد البنية الداخلية للجماعات (التشريح الاجتماعي، المورفولوجيا الاجتماعية) والتطور الداخلي للجماعات وعلاقاتها فيما بينها (الفيزيولوجيا الاجتماعية، الدينامية الاجتماعية).

3-أصول علم الاجتماع: عندما نريد أن ندرس أصل علم الاجتماع، من المهم التمييز، من جهة تيار من الأفكار قادم من القرن 18، الذي يؤكد أن الوقائع الاجتماعية محددة. ومن جهة أخرى اهتمامات مباشرة، عملية ونظرية، التي خلال القرن 19 بلورت فكرا لازال منتشرا.

تأكيد الحتمية الاجتماعية:

العصر القديم: العصر القديم لم يكن لديه أي معنى عن الحتمية الاجتماعية. جمهورية أفلاطون هي كتاب في الفلسفة السياسية التأملية. أرسطو في كتابه السياسة أبان عن فكر موضوعي ولكن في الحقيقة كان يعالج بفن مبتذل التربية المدنية. أما الرواقيون، فإن اعتقادهم في نوس، في ضرورة تحكم المجتمع وكذلك الطبيعة، هو اعتقاد لاهوتي خالص ولم يقدهم إلى فكرة علم اجتماعي ولكن إلى نظام يجب محاكاته هو القانون الطبيعي.

القرن 18: ولكن في عصر مونتسكيو، زيادة على التطورات الحاصلة في علوم الطبيعة التي تقدم النموذج، سنرى علوما جديدة. الأسفار الكبيرة مكنت من تحقيقات إتنوغرافية حيث أن المختصين كانوا دائما الموسوعيين، لقد كونوا معرفة مع مجتمعات أخرى كأثينا وروما والملكيات التقليدية.

لقد تكون المنهج المقارن، خلال القرن 18 كذلك تكونت فلسفة التاريخ مع فيكو، وأن الاقتصاد السياسي الخارج عن جون بودان صار مع الفيزيوقراطيين وآدم سميت وصفا موضوعيا لظواهر الإنتاج والتبادل والاستهلاك، وأن الإحصاء الخارج عن المحاسبة الخاصة بالميادين الملكية وصل إلى مرحلة النضج مع لافوازيي. وكان لابد من انتظار الفيزيولوجيا الاجتماعية للرياضي البلجيكي بالج كيتوليBelge Quetelet من أجل أن يعاد عمل لافوازيي. ولكن يمكن أن ندافع من وجهة نظر المبادئ، إن المخترعين الكبار لهذه الفترة هم مونتسكيو وكوندورسي. في كتابه روح القوانين (1748) مونتسكيو طرح المبدأ القائل أن القوانين والعادات لا تتكون بالصدفة ولا برغبة الناس ولكن حسب ضرورة طبيعية. لقد كتب ليس من أجل اقتراح إصلاحات ولكن من أجل فهم بواسطة العقول المؤسسات القائمة. كوندورسي في محاولة لرسم لوحة تاريخية عن تقدم الفكر البشري أراد دراسة المجتمع كما تدرس القنادس والنحل. ولكنه أدخل أيضا فكرة أن سيرورة المجتمعات منظمة طبيعيا وليس لاهوتيا كما اعتقدبوسوي.

إذا فحصنا تفصيل أعمالهما، مونتسكيو وكوندورسي لازالا بتعيدين عن الصرامة العلمية. مفهوم القانون المطبق على المجتمع، ومفهوم تطور محدد هما مكسبان أساسيان.

القرن 19: خلال القرن 19، في كتابه: " Mémoire sur les Sciences de L'homme" (1813) استل سان سيمون علم السياسية من حالته كعلم احتمالي. في الوقت الذي اعتقد فيه كوندورسي أن التقدم هو من عملنا، فإن سان سيمون رأى فيه واقعة مستقلة عنا.

ولكن المؤسس الحقيقي لعلم الاجتماع هو أوغست كونت. لقد كان أول من أدرك أن الضرورة الطبيعية يخضع لها أيضا المشرع، لا مجال للخلط مع مونتسكيو بين القانون العلمي والقانون الشرعي. وأكثر من كوندورسي، كان لا بد أن يظهر في قانونه عن الأحوال الثلاثة، المراحل الضرورية لتطور المجتمعات. وهو أيضا المميز بين القوانين الاجتماعية وقوانين الوجود وقوانين التتابع، وقد ميز بين فرعي علم الاجتماع: السكون الاجتماعي والدينامية الاجتماعية .

اهتمامات المؤسسين: ولكن يجب القول أن اهتمامات سان سيمون وأوغست كونت لم تكن بسيطة. من غير شك لقد كانا منشغلين بالعلم الخالص وأحد مقاصدهما كانت التحسين النظري لمعرفة الجماعات الإنسانية، ولكنهما كانا يبحثان أيضا في الفعالية.

4-تطور علم الاجتماع:

علم الاجتماع النظري:

دوركايم، خصوصية الواقعة الاجتماعية

فرضيات علم الاجتماع العام وخصوصية الوقائع الاجتماعية:

من الملاحظ أن بعد أوغست كونت المعنى العميق لأبحاثه قد ضاع. كان يجب انتظار دوركايم من أجل إيجاد فكرة أن علم الاجتماع يمتلك موضوعا خاصا، لا يختلط مع موضوع البيولوجي، ولا مع موضوع علم النفس. وهو أنه، كما بين ذلك غايتان بيرون قد تم الاعتقاد سريعا قي القوانين الكبرى المفسرة للوقائع الاجتماعية مع مماثلتها بالقوانين البيولوجية النفسية. ولكن فشل هذه المحاولات ذاتها كانت مهذبة. إن دراسة دوركايم أدت إلى ظهور شروط تأسيس علم اجتماع علمي.

علم الاجتماع البيولوجي: عقب سبينسر واسبيناس فرضية مماثلة علم الاجتماع بالبيولوجيا تم عرضها في أطروحة ريني وورم: الجسم والمجتمع.

المجتمع جسم، هذا هو المبدأ. ريني وورم ذهب إلى إقامة توافق بين الكلمتين. البورصة هي القلب والقيم الصادرة عنها هي دم الجماعة. ولكن خطأ العضوانيينOrganisistes كما اعتقد غايتان بيروفي أعقاب دور كايم، ليس في عدم ملاحظة الخاصية الإنسانية للوقائع الاجتماعية. ذلك أنه إذا كانت هذه الوقائع إنسانية بشكل خاص، فإننا لا نرى. 1- أي معنى يمكن أن تأخذه عبارة مجتمع حيواني الذي له امتداد مع ذلك (مجتمع النحل والنمل). 2-كيف يمكن الدفاع عن خصوصية الاجتماعي ضد الغزو بواسطة علم النفس؟ الوقائع الاجتماعية ليست تمثلات خالصة ولكنها ليست أيضا وقائع بيولوجية. تجمع الأجسام يعطي محلا لظواهر التبادل، وتقسيم العمل للإشارة التي تذهب إلى حد تضخم لوظيفة ما، والكبح الذي يمكن أن يذهب إلى حد إلغاء وظيفة بيولوجية مثل الجنسانية لدى بعض الحيوانات. بمقتضى مبدأ العمل المقابل.

النظام الاجتماعي يعدل النظام البيولوجي، إنه ليس ذا جوهر بيولوجي. إنه بالأحرى يناقض النظام البيولوجي، ريني وورم اعترف بذلك عندما كتب قائلا: " إذا كان المجتمع يكون جسما، فإن معه شيء أساسي زيادة على ذلك. هذا الشيء الأساسي هو الواقعة الاجتماعية.

علوم الاجتماع النفسية: في مقابل النظريات العضوانية هناك النظريات التي تؤكد الخاصية الإنسانية الواعية بالواقعة الاجتماعية التي مجموعها يكون النزعة النفسية في علم الاجتماع. إننا نجدها خصوصا في عمل جابريالتاردGabriel Tarde (قوانين المحاكاة 1890، دراسات في علم النفس الاجتماعي 1898).

علم الاجتماع، يقول تارد هو مثل علم النفس بالجملة. يجب أن نفهم هذه القضية بمعنى دقيق. بالنسبة لتارد، الدلالات التي تدخل في علم الاجتماع كلها مصدر سيكولوجي، بمعنى فردي " إبعاد الفردي لن يبقي شيئا من الاجتماعي. ولكن كيف نمر من أحدهما إلى الآخر أو ما هي أصالة الاجتماعي، الجواب هو التالي: الفرد يخترع، الكائن الاجتماعي باعتباره اجتماعيا يحاكي. المجتمع هو جماعة من الكائنات يحاكي بعضها البعض. مهما تكن النجاحات التي حققها تارد، خطؤه مؤكد. المنهج يتضمن حلقة مفرغة. علم النفس لا يمكنه أن يتكون قبل علم الاجتماع.

دوركايم وخصوصية الاجتماعي:

هناك فيما يبدو نظام اجتماعي خاص يتميز عن النظام السيكولوجي كما عن النظام البيولوجي. دوركايم طرح خصوصية الاجتماعي على مستوى الملموس. الكل، كتب في قواعد المنهج في علم الاجتماع، ليس مطابق لمجموع أجزائه، إنه شيء آخر حيث أن خصائصه تتميز عن الخصائص التي تمثلها الأجزاء التي يتكون منها.

المجتمع ليس إذن مجموع من الأشخاص، فهل هو مكون من مؤسسات ؟ نعم ولكن وراء المؤسسات الحكومات، اللغات هناك شيء آخر، علاقات تدعمها، وتعطيها القوة والمعنى والتي هي أعمق من المؤسسات ذاتها.

دوركايم رأى أن هذه العلاقات هي تمثلات وليس وقائع مادية. إنها تغدو عواطف، أنماطا من العمل أو الفكر. ولكن إذا كانت هذه التمثلات ذهنية فإنها تمتلك خاصيتين تميزها عن التمثلات الفردية. إنها جمعية قسرية.

1- الوقائع الاجتماعية جمعية، هذا يعني أنها ليست فردية، ولكن أيضا ليست عالمية أو عامة. إنها ليست عالمية لأنها تتعلق بجماعة بعينها. وأنها ليست عامة ذلك أننا نقول عن خاصية أنها

عامة عندما تنتمي إلى كل أفراد طبقة دون استثناء. ولكن اللغة الفرنسية مرتبطة بالإثنية الفرنسية حيث أن الرضع والحمقى يجهلونها.

2- الوقائع الاجتماعية قسرية: بمعنى أنها مصانة بواسطة العقوبات، إنها تتم من غير قصد الإنسان، بواسطة حتمية طبيعية. الظواهر الاقتصادية، تطور اللغات مثلا يبدو أنها وقائع تفلت من إرادة الأفراد.

المكسب النهائي لأعمال دوركايم هو تطبيق المنهج الوضعي في علم الاجتماع.

دوركايم ليس أول من طبق المنهج الوضعي ولكنه أول من عبر بوضوح عن شروط تطبيقه.

1) -معالجة الوقائع الاجتماعية كأشياء.
2) -العودة إلى التاريخ: التاريخ المقارن. ولكن يجب أن لا ننسى أن الأمر لا يتعلق أبدا بصناعة التاريخ، الهدف هو تحديد ماهيات، وتثبيت قوانين. ولهذا استدعى التاريخ المقارن.
3) -الرجوع إلى الاتنوغرافيا: بعض المجتمعات ليس لها تاريخ فقط الأساطير، ومن جهة أخرى المنهج المقارن لم يولد في التاريخ ولكن عن قصص الرحالة. المقارنة لدى عالم الاجتماع تتم في الزمانوالمكان. إلى جانب التاريخ المقارن المكرس لاستعمال مماثل، نجد الاتنوغرافيا. الاتنوغرافيا هي العلم الذي يصف المجتمعات غير الصناعية.

علم الاجتماع الفهمي والمجادلة ضد الدوركايمية:

في الوقت الذي توجه علماء الاجتماع الفرنسيون في أعقاب أوغست كونت نحو وضعية مؤكدة بوضوح شيئا فشيئا فإن في ألمانيا في أعقاب ديلتاي تطور تيار فكري مختلف جدا يستند ليس على نزعة نفسية كامنة كما يعتقد أحيانا ولكنها على كل حال نزعة إنسية. إن ظاهرة إنسانية لا يمكن أن تعالج بصرامة كظاهرة طبيعية، فيما يرى مفكروها، حتى ولو كانت هذه الطبيعة لها ميزة خاصة.

تونيز والنمذجة: بالنسبة لتونيزTonnies (الجماعة والمجتمع (1944)) كما بالنسبة لدوركايم، علم الاجتماع موضوع أشياء. ولكن هذه الأشياء مختلفة عن أشياء دوركايم، هي جواهر، أنماط من العلاقات. وهذه الأنماط تتحدد بالنسبة لمرجعية واضحة على التمييز السيكولوجي بين الإرادة العميقة والعضوية وإرادة الاختيار. الأولى تحدد نمط جماعة مثلا العائلة، العلاقة الجنسية، الثانية تحدد المجتمع حيث الفصل الأساسي هو التبادل وتجلي العقد. في الجماعة الأفراد يكونون محددين بواسطة الزمرة بحيث يكونون في ديارهم، والدخول إلى المجتمع هو كما لو كان أرضا أجنبية، لأنه من عمل أفعال أجزائه التي تحدده بطريقة مجردة.

ماكس فيبر والأنماط المثالية:

ولكن لدى ماكس فيبر أخد مفهوم النمط المثالي دقته وأهميته الكبيرة. بالنسبة لماكس فيبر علم الاجتماع هو قبل كل شيء فهمي، ولكنه يتميز عن علم النفس باعتبار أن هذا الأخير يتصور كلية الحياة الروحية بينما علم الاجتماع ينحصر في أنماط عقلية حيث أن أنماط ردود الأفعال الفردية ليست سوى انحرافات. هذه الملاحظة التي قادته إلى التفكير في ملاحظات مماثلة لدوركايم حول الفرد العامل، قادته إلى نتائج من نظام آخر. الأنماط ليست أشكالا كما لدى تونيز ولكن ليست أيضا تمثلات جمعية. إنها ميول، خطوط قوة تحدد بعض التوزيع للتوتر الاجتماعي. أساليب فعل عقلاني، عاطفي، تقليدي تتقاطع مع خصائص الجماعة والمجتمع من أجل إيجاد خصائص فهمية. هكذا فإن نظاما شرعيا سيكون عقلانيا إذا قام على اعتبارات مبادئ قانونية، ويكون كاريزميا إذا قام على الوجدان. النمط المثالي ليس تجريبيا، إنه مفهوم مفتاحي حصريا.

علم الاجتماع الفينومينولوجي:

أكثر إنسوية هو علم اجتماع ماكس شيلر تلميذ هوسرل في الفلسفة. في كتابه طبيعة وصور التعاطف يطرح كمبدأ أن هناك شعورا مباشرا بالغير، إمكانية الإتحاد بين الأنا والأنت. إنه يميزه عن العدوى العاطفية البسيطة. الحشد الذي ليس مجتمعا، يتكون بواسطة العدوى العاطفية. هناك جماعة حيوية عندما تفتح التجربة المعيشة المشتركة الطريق إلى إدراك مباشر لكل مجتمع. ويكون هناك مجتمع عندما تكون الوحدة مصطنعة، وشخصية جماعية عندما يستقر تضامن روحي. المثال عن الجماعة هو العائلة، وعن المجتمع بواسطة الأفعال، والشخصية الجماعية مثالها الكنيسة.

المجادلة الضد دوركايمية: هذه المعارف حول علم الاجتماع الألماني ضرورية من أجل فهم العمق المذهبي الذي عليه استندت المجادلة التي أطلقها ضد دوركايم جول مونيروJules Monnerot.

وجهة هذا الأخير فينومونولوجية أساسا وإنسوية. إنه ينطلق من الذات كشرط إنساني مموضع ومؤرخ. لقد استعار من شيلر فكرة أن الوجدان وسيلة للمعرفة. المجتمع لا يمكنه إلا أن يعاش بواسطة أشكال من الوعي الفردية. ويستتبع هذا أن الوقائع الاجتماعية ليست أشياء وأنه يجب التخلي عن منهج دوركايم. ألا يوجد تناقض في الواقع، في الاحتفاظ بفكرة في نفس الوقت أن الوقائع الاجتماعية هي أشياء وأنها تمثلات ؟ إما أن الوقائع هي تمثلات وإذن يجب أن تعالج بواسطة المنهج الفهمي وإذن هي ليست تمثلات. يبدو لنا أن دوركايم لم يكن واعيا

تماما بهذا في الواقع نعتقد أن الوقائع الاجتماعية ليست تمثلات إلا إذا اعتبرنا بالمثل تمثلات الوقائع الرياضية، والفيزيائية والبيولوجية ...إلخ.

بمعنى في نطاق حيث أي واقعة لا توجد بالنسبة للإنسان لا تكون متصورة. الوقائع الاجتماعية هي بالماهية علاقات قوة تحدد وجود الجماعة. إنها لا تنتمي بالطبيعة إلى الوعي. إنها تتصورها كما تتصور الكل بدون اختلاف.

5-التفسير والفهم في علم الاجتماع:

الفضل يعود إلى دلتاي الذي ميز بين نزعة علوم الطبيعة ونزعة علوم الإنسان. بينما الأولى تبحث عن بناء علاقات ثابتة بين ظواهر، بمعنى تفسريها، فإن الثانية تواجه وقائع تبلور مشاريع إنسانية جماعية والتي تستمد مبدأها المتميز من المكانة التي تحتلها على محور الزمن، هذه الظواهر تفهم ولا تفسر. هذا التمييز بين دوركايم وماكس فيبر أو لنقل بين علم الاجتماع الفرنسي وعلم الاجتماع الألماني. فدوركايم يؤكد أنه يجب معالجة الوقائع الاجتماعية كأشياء، ويطرح أن على عالم الاجتماع أن يبحث عن أسباب الظواهر التي يدرسها بمعنى الظواهر السابقة والمنتجة. أما فيبر، فإنه يذكر بأن علوم الثقافة هدفها إضاءة الدلالة، فهذه الأخيرة هي العلاقة التي يقيمها المجتمع مع ذاته وماضيه من خلال العالم. بحيث أن مع دوركايم علم الاجتماع يبدو أنه ينبغي أن يكون فيزياء اجتماعية، بينما مع ويبر إنه أسلوب الوعي الذي يتخذه المجتمع عن ذاته، وعن تاريخه وتاريخ مجتمعات أخرى.

لكن بالإضافة إلى ذلك، وراء هذه المنهجية العلمية، يعرف دوركايم المجتمع كوعي جمعي، بمعنى كواقع فيزيائي يتعالى على النفسية الفردية، وطالب علم الاجتماع بدراسة علاجات مرض المجتمعات المعاصرة (الأنوميا). أما فيبر، فإنه لا عالم اجتماع نشط مثله الاهتمام الإبستيمولوجي تجاه العلم الجديد (وبكل تأكيد لدى ويبر نفس هم الصرامة في جمع ومعالجة الوقائع كما لدى دوركايم). [1]

6-علم اجتماع ما قبل الأمس:

كلمة علم الاجتماع نحتها أوغست كونت للإشارة إلى العلوم التي وضعها في أعلى تراتبية المعارف، باعتبار أن موضوعه هو الأكثر تعقيدا وأن تقدمه يتوقف على تطور مجموع المعارف الأخرى. في نفس الوقت كونت

[1]FrancoisChatelet , (Sous dir.) , La Philosophie des sciences sociales , Hachette , Paris , 1973 .

نسب إلى علم الاجتماع – لأنه الأكثر تركيبا في العلوم – مهمة إضاءة الإنسانية حول مصيرها التاريخي. هكذا مع المبتكر –إذا لم يكن للعلم فعلى الأقل للتسمية – ثلاثة أبعاد مرتبطة تحدد الفترة الأولى من علم الاجتماع، البعد المتعلق بالأوهام والمطامع الكبرى: تحليل الكل الاجتماعي في تعدد تحديداته والوحدة التي تشكل تشابكها، تفسير معنى الصيرورة الجماعية، إملاء الممارسة السياسية والاجتماعية للناس من أجل أن تكتمل العقلانية المندرجة ضمن إمكانيات المجتمع الصناعي. سواء تعلق الأمر بكونت أو بتوكفيل أو بسبنسر أو ماركس وآخرين لم نذكرهم، كلهم أرادوا أن يكونوا علماء وأنبياء لحداثتهم، هذه الحداثة محددة حسب معيار مختلف. توكفيل آثر المعيار السياسي وأكد على أهمية مفهوم القرب والجورة في ديمقراطية ليبرالية خالية من التراتيبات التقليدية. كونت وسان سيمون وسبنسر شددوا على المعيار التكنولوجي، ماركس وبرودون ركزا على المعيار الاجتماعي والاقتصادي (تنظيم الإنتاج وعلاقات الملكية).

7–علم اجتماع الأمس:

زمن الحماسة لعلم اجتماع يندرج ضمن المؤسسات الرسمية والذي يأخذ شرف وعظمة الخطاب الجامعي. المجتمع الصناعي قد جرى تنصيبه. لقد صدّر عقلانية في العالم. واكتشف أيضا أن لاعقلانياته الخاصة لها مقاومة أكثر مما كان يعتقد، ولكن لا خشية منها، ذلك أنه يقدر على البقاء أمام الاضطراباتالثوريةالتي زعزعته في وقت ما. هذه الاضطرابات صارت موضوعا للتأمل. علم الاجتماع الذي وصل في مرحلة من بنائه ويحكم أكثر فأكثر باحتلال مكان مستشار الأمير، محص مناهجه، وانشغل بالتدخلات المحتملة للإيديولوجيا وأكد بقوة إرادته في العلمية. ولكن هل نشهد قطيعة حقيقية مع مرحلة الأوهام والمسيحانيات ؟ الأمر ليس أكيدا، التحولات التي عرفها الخطاب السوسيولوجي لم يذهب إلى حد مناقشة الأفق الذي كان ملكه. بالأحرى بدلا من التحولات يجب الكلام على الاستئناف، علماء الاجتماع يبدو أنهم اعتمدوا كمهمة أساسية إعادة وضع المشكلات التي كانت مشكلات المؤسسين.

لا يبدو ضروريا استرجاع أعمال دوركايم وماكس فيبر. يكفينا الإشارة إلى أن المشروع الدوركايمي والمشروع الفيبيري يندرجان ضمن حالة مماثلة من الأزمة التي عرفها المجتمع المعاصر. مع دوركايم، علم الاجتماع الفرنسي وجد في نفس الوقت المعلم الذي يملي عليه قواعد منهجه – التي يجب مراعاتها من أجل أن يكون علما كبقية العلوم بمعنى علم صارم بالأسباب– ورجل الإيمان الذي يرى في المجتمع حقيقة نفسية عالية. تشخيص فيبر لشر الزمان مماثل. التحليل الذي يجريه لأسبابه وكذا الإجابات التي يقترحها مختلفة جدا.

8–علم اجتماع اليوم:

نلاحظ اليوم تراكما في البحوث التجريبية وتعدد في الأشياء المفيدة، وسوسيولوجيات جزئية. ولكن هناك تراجع للتقليد التأملي والنظري. إنه يسود اليوم الاهتمام بالفعالية على الإيديولوجيا الصريحة، ولكن الطموح إلى تكوين حقل يمكن من التوحيد والتصميم لم يختف كليا. تجدر الإشارة إلى أن الطموح هذا يجد موطنه أولا في الاتنولوجيا. هكذا هو الحال أمام الوظيفية والبنيوية أو الأبحاث في الدينامية الاجتماعية.

لن يكون من الرصانة التقليل من أهمية الدراسات الجزئية وغنى المواد التي تراكمها. يجب أن نذكر –إذا بقينا على مستوى علم الاجتماع الفرنسي فقط – الأعمال المنصبة على علم الاجتماع المؤسسات التربوية لآلان جيرار (تحقيقات ريمغرافية) وبورديو وباسيرون (الورثة)، أعمال علم الاجتماع الإعلام الآلي ووسائل الإعلام لكزانوف، علم اجتماع التنظيمات والبيروقراطيات لميشال كروسيي (الظاهرة البيروقراطية، علم الاجتماع الصناعي مع فريدمان ونافيل).

الوظيفية: تجد الوظيفية أصلها في أعمال مالينوفسكي الذي وضع المبدأ " تفسير الوقائع الإتنولوجية على كل المستويات وتطورها بواسطة وظيفتها، بواسطة الدور الذي تلعبه في النسق الثقافي ككل، بالطريقة التي تترابط بها مع بعضها البعض في هذا النسق " [2]. الوظيفية تسلم بالوحدة الوظيفية للمجتمع الذي يشكل نسقا أو نظاما. هذا النظام الاجتماعي يميل إلى أن يتأبد كما هو، بحيث يحافظ على التنسيق المتناغم بين عناصره ويبعد الصراعات المستمرة. التغيرات الوحيدة لا يمكن أن تأتي إلا من أسباب خارجية (ما جعل روجي باستيد يكتب: " الوظيفية تفسر جيدا لماذا تستمر الأشياء، ولكنها لا تفسر لماذا تتغير " [3]. مرورا من دراسة المجتمعات المسماة قديمة إلى المجتمعات الحديثة، الوظيفية إذا كانت قد احتفظت بالأساس في بنيتها، فإنها مع ذلك قد تحولت. الفصل يعود إلى روبرت ميرتون الذي أدخل مفهوم الاختلال الوظيفي، الوظائف، ضمن النتائج الملاحظة، هي تلك التي تسهم في التكيف أو ترتيب نسق معطى والاختلالات الوظيفية هي التي تعوق التكيف وضبط النظام. في أي حالة مهما كانت، العنصر الواحد يمكن أن يكون له في نفس الوقت نتائج وظيفية وغير وظيفية.

الوظيفية كانت رد فعل – ضروري لتطور الاتنولوجيا– ضد التأملات التاريخانية الأولى أو السيكولوجية وفي صالح ملاحظة الوقائع في الميدان وتصنيفها وتنظيمها.

---

[2]Ibid .

[3]Ibid.

هناك من يريد أن يرى في البنيوية – التي أتت هي أيضا من الاتنولوجيا–إستمرارا للوظيفية. ليفي–ستروس نفسه، ناقدا للوظيفية (القول أن مجتمعا يعمل هو تحصيل حاصل، ولكن القول أن كل شيء في المجتمع يعمل هو سخف) آلا يؤهله لبنيوية أولية ؟ نقطتان أساسيتان على الأقل تفصلهما. البنيوي يعرف البنية كبناء للفكر العقلاني ويعيب على الوظيفية واقعية الوظيفة. الوظيفية تتساءل عن مسلمة الوظيفية عن المجتمع ككل منظم، مما يجعل من كل تفكير في التاريخانية أمرا صعبا. في الواقع، البنيوية هي مقاربة للاجتماعي الذي يرتبط بتطور المنطق الرياضي بينما الوظيفية التي تأخذ أداتها من السيبرنتيقا تميل إلى مطابقة الجسم الاجتماعي بالجسم.